من نظرات تشسترفيلد[1]

ـ ٤ ـ

«فيليب دورمر ستانهوب لورد تشسترفيلد» من نبلاء الإنجليز، وأهم مؤلفاته رسائله إلى ابنه، وقد ضمنها نصائحه التى اكتسبها من خبرته فى مخالطة الناس، فقد شغل مناصب مختلفة، وعاشر أناسًا كثيرين من طبقات مختلفة؛ إذ كان أولاً عضواً فى مجلس النواب، ثم فى مجلس اللوردات، ثم سفيراً فى هولاندة، ثم حاكمًا لارلندة، ثم وزيراً، ورسائله ذخر مملوء خبرة بالنفوس وكنز من تجارب الحياة، وقد أسرف الدكتور صمويل جونسون الأديب الإنجليزى فى ذمها، ولكنه اعترف فى ثنايا ذمه بما فيها من فطنة وخبرة إذْ قال: لو سلّ منها مالايجمل التخلق به لصلحت كى يقرأها كل فتى، وأوجه الاختلاف بينهما كثيرة: منها أن جونسون كان ينمق الرسائل فى الأخلاق النظرية ويحتذى ما درسه فى الكتب، وتشسترفليد كان يسترسل فى وصف النفوس كما خبرها بأسلوب سهل موجز حتى عُدَّ آية فى بلاغة الإيجاز. ومنها أن جونسون فى أيام فقره تَطَلّع إلى أن يمده النبيل الغنى بمعونة تعينه على نشر مُصَنَّفاته، فلم يفعل اللورد أو أنه تباطأ أو أهمله مدة. فأرسل إليه الدكتور جونسون رسالته التى كانت كصوت بوق يوذن بعصر جديد، وباعتماد الأدباء على كسبهم بدل الاعتماد على معونة النبلاء. ومؤرخو الأدب يقولون: إن ابن تشسترفيلد الذى كتبت له الرسائل لم ينتفع بها انتفاعًا كبيراً، ولم يفده ذكاء ولا خبرة، ولا غرابة فالكتب لاتخلق عقلاً ولا تنشئ ذكاءً غير موجود وإنما تُفَطّن وتربى ماهو موجود، والخبرة قلما تفيد إلاَّ إذا عالجها المرء بنفسه. وكثير من الناس يعالجون التجارب ولا ينتفعون بها،

(١) المقتطف: فبراير سنه ١٩٤٨.

فكيف بها إذا كانت تلقينًا وقولاً يقوله غيرهم، وإنما يكون نفع التجارب إذا صادفت فى النفوس توفيقًا واستعدادًا. وكل ما يقال فى ابن تشسترفيلد أنه لَمَ يُظْهر فضلاً كبيرًا ولا نقصًا خطيرًا، وإنما كان من غمار الناس. وأمل المورخ الذى كان يأمل نبوغه بسبب الرسائل، إنما هو نوع من الاعتراف بكياستها وفطنتها.

وقد أوردتُ نتفًا على سبيل الاقتباس منها، والتفكير فيها، لا على سبيل الترجمة الحرفية. وربما أدمجت بعضها فى بعض:

١ ـ بعض الناس يمدح نفسه بصيغة الذم، فيكسو الفضائل لباس النقيصة والعيب، ثم ينتقص نفسه بتلك الفضائل، ويعيبها بتلك المحامد التى كساها كساء العيب، كى يجعل مدح نفسه سائغًا لدى الناس. فيقول مثلاً: من عيوبى التى لا أستطيع أن أغالبها أنى أقول الحق فى غير موضعه، وآتى بالصدق فى غير مكانه، أو يقول: من عيوبى أنى مارأيت إنسانًا مُصابًا إلاّ وددتُ أن أشاركه فى مصابه، كأنى أحمل الدنيا أو كأنى موكل بها، ولا نزال فى تلك الودادة حتى أقاسمه المصاب وأشاطره وأعينه على ما حل به وأهيئ له من أمره ترفيهًا ورشدًا. . . أو يقول: من نقائصى المذمومة أنى كلما رأيت مظلومًا نصرته، وإن كان فى نصره ضرر لى، ومن مقابحى التى لا أستطيعُ الخلاص منها أنى كلما رأيتُ ضعيفًا أعنته على أمره، والعاقل حقيق بالانصراف عن هذه الوسيلة التى توهمه أنها تحمل الناس على اغتفارهم له مدح نفسه؛ إذْ هى لاتحملهم على الاغتفار، بل تزيد الناس سخرية به وإزراءً عليه ـ ومن الناس من يتخذ لنفسه شعارًا فى أمر من الأمور، ويوهم الناس أنه وحده كفيل به لاشريك له، ويردده فى كل فرصة حتى يمل أمره ولا تنفعه طلاقته ولا أنه ذرب اللسان ذلقه، وللناس افتنان فى هذه الأساليب المتغايرة، وفى الحالتين المذكورتين، المدح المراد للنفس، مدح لم يقصده صاحبه إلاّ بطريقة ملتوية، ولكنها حيلة مكشوفة.

٢ ـ إذا أكثر رجل من القسم ولجَّ فى الحلف كى يحملك على أن تصدقه وكى يقنعك بحلفه فى أمر لايستدعى تصديقه كل هذا الحلف فهو فى أكثر الأحايين كاذب فيما يقول، وإلاّ ما تكلَّف جهد الحلف كى يخفى به كذبه، وكى يداوى شكه فى تصديقك كلامه، وكى يعالج خوفه من رفضك قوله ـ وهذا

يذكرنى قصة رجل من أهل المدينة كان يقول للناس: أنا والله من قُرَيْش والحمد لله، فقال له سامع: الحلف والتحميد هنا أمران مُريبان، أى يدعوان إلى الشك والريبة فى صدقه، على أن الرجل قد يكون صادقًا فى كلمته، وإنما يعالج بالحلف اشتهاره لدى نفسه ولدى الناس بالكذب فى أمور أخرى غيرها، وقد يكون الحلف عادة عوَّدها، ولكنها توقفه موقف الرجل الظَّنين المتهم فى صدقه.

٣ ـ كثيرٌ من الناس يكرهون أن يُتَّهموا بالحماقة أو الغباء، أو السخف، أو الحقارة، أو ماشابه ذلك من أوجه النقص والعيبِ أكثر من كرههم أن يتهموا بالآثام والخطايا والجرائم والشر ـ ولكن قلما يفطن المعاشر إلى سبب هذا التفضيل ووجوبه؛ إذ أن الرجل يكره ما يلحق به الاحتقار أكثر من كرهه ما يلصق به خوف الناس منه، وهو يعرف أن الناس قد يعجبون بالشر والخطايا ويزيد صاحبها عظمًا وقدرًا فى نفوسهم ويفخرون بها؛ ولكن الناس لايستعظمون السخف، ولا يجلون الحماقة والغباء، ولا يفخرون بهذه الصفات التى تزيد صَاحبها احتقارًا فى نظرهم، فلا يستهين العاقل بنسبتها إلى الناس اعتمادًا على أنه إن لم يجعلهم من الأشرار ولم يقل إنهم من المجرمين فقد نسب إليهم ماهو أقبح فى نظرهم وأكثر مجلبة للذم، على أنك قد ترى ساذجًا ينسبها إلى صديق، فإذا غضب صديقه دُهِش وقال من غير تعمد للسخرية: أنا لم أقل إنه مجرم شرير ولم أقل إلاّ أنه سخيف!!

٤ ـ كل إنسان يُفَضِّل أن يمدحه مادح بالصفة التى يدعيها لنفسه، وليست فيه أو ليست غالبة عليه؛ على أن يمدحه بالصفات الممدوحة التى يُقرّ له بها الناس، ويعترفون بفضله فيها؛ لأنه فى الحالة الأولى يكسب محمدة جديدة، ولا يكسب شيئًا فى الحالة الثانية إلاَّ اعتراف بعض الناس بمالايشك فيه أكثر الناس ولا يمارون، وهذا يذكرنا أن الكاردينال ريشليو السياسى الشهير ما كان يبتهج إذا مدحه مادح بحنكته السياسية وخبرته وبراعته، وإنما كان يسره أن يمدحه مادح بإجادة فن من الفنون الجميلة لم يُجده ولا برع فيه ولا أتقنه ـ وهكذا أكثر الناس كأنهم ما سمعوا قول الإمام على رضى الله عنه: (قيمة كل امرئ ما يحسن).

٥ ـ مهدْ لنفسك منفذًا إلى عقول الناس منْ طريق قلوبهم وما تشتهى نفوسهم؛ فإن عقول أكثر الناس وعرة صعبة المسلك ملتوية، وعندى أن هذه النصيحة تنفع أيضًا مع من كان الطريق إلى عقله موطَّأً سهلاً ممهدًا، فإذا لجأت إليه من طريق قلبه وجدت عقله ازداد سهولة وصار أخف مئونة، وقد لايكلفك طريق قلوبهم إلا البشاشة والملاينة وطيب الذكر وحسن القول.

٦ ـ كما أن النقود الصغيرة من العملة القليلة القيمة لا غنى عنها فى معاملات الناس اليومية الصغيرة، فنقود الفكر القليلة القيمة لا غنى عنها فى مجالس الناس ومحادثاتهم ومفاكهاتهم، ومن أراد أن يستبعدها وألا يتعامل معهم فى أمثال تلك المجالس إلاّ بالفكر العويص والرأى العميق والفلسفة البعيدة والألفاظ الفخمة والتقعر فى الكلام كان مثله مثل الرجل الذى لايريد أن يتعامل فى المعاملات اليومية الصغيرة إلاَّ بقضبان الذهب الثقيلة الكبيرة فتمتنع المعاملة. وهذا يذكرنى قصة رجل كان له ابن هذه صفاته وكان الرجل فى مرض الموت وأبى أن يرى ابنه إلاَّ إذا ترك هذه الصفات فوعد ابنه بتركها فى زيارته لأبيه، ولكنه لم يستطع مغالبة طبعه فكان الموت أحب إلى أبيه من زيارته.

٧ ـ بعض الناس مولعون بالأحكام العامة والجمل المألوفة والأمثال السائرة يرددونها كلما أتيحت لهم فرصة ويوهمون أنفسهم أنها تصدق فى كل حالة، والعاقل من تجنب الأحكام العامة والجمل المألوفة، فليست حالة إلاَّ وفيها اختلاف قلَّ أو كثر عما يشابهها من الحالات، وكذلك الأمم والطوائف والجماعات تختلف آحادها فليس من الصواب أن يحكم المرء على أمة أو طائفة أو جماعة من النّاس حكمًا عاما ـ وكثرة التشادق بالأمثال والجمل المألوفة التى سارت مسير الأمثال لا يلجأ إليها إلاَّ من لا يميّز دقائق الفكر، وبعض الناس لا ينتهى من مثل إلاّ ليبدأ مثلاً آخر أو حكمة معروفة، كأنه آلة الحاكى تردد من غير تمييز.

٨ ـ من العلم مايكسب صاحبه رجاحة فى عيون الناس وقلوبهم، ومنه ما يكسبه زينة، والأول لاغنى عنه، ولكن ينبغى أن يذكر العاقل أن كثيرًا من الناس

لايستطيعون وزن الأمور ومعرفة رجاحتها، وإنما يحكمون بما هو رونق يرونه ـ وإذا كان حكم الناس بالنظر أكثر من حكمهم بالفكر، فقلما يصيب أحد النجاح إلاَّ إذا كان له نصيب من النوع الثانى من العلم.

٩ ـ إن المكارم الكبيرة والنعم السابغة قد يصنعها المرء بسفه ويفعلها بخرق ويهجم بها على من يجود عليه بخطأ أو طيش وحماقة فتسىء مكارمه ونعمه إلى من يصطنعها عنده فتصير أسوأ من الإساءَة إليه إذا جاءته بلطف يثلم حدها ويفل غربها ويقلل ألمها، فربَّ نعمة قد تجلب عدوا، وإساءة قد لا تنفِّر صديقًا.

١٠ ـ المشاكسة فى الأمور الصغيرة من علامات ضئولة النفس، وكثيرًا ما تكون مصحوبة بالشعور بالنقص يداويه صاحبه بمشاكسة أو مهاترة أو مغاضبة، فتكون أظهر لنقصه عند من درس طبائع النفوس.

١١ـ من أسباب النجاح الصبر على مضض الحديث الغث المُملّ، أو على سماع رغبات الرجل المشاكس أو المُلحّ، وهو إصغاء لا يلزمك عملاً تعمله ـ أو خطة ترسمها وتتكلفها وتنفذها ـ وقد تجد شيئًا من الفكاهة إذا عوّدت نفسك هذا الصبر، وقد تجمع إلى الفكاهة فائدة أخرى، وهى دراسة نفس محدثك، وفى دراسة النفوس لذَّة بالرغم من ألم ذلك الصبر ومضضه، وبعض من اشتهر باللباقة من الساسة، وبالحُنْكة فيها، أكثر بضاعتهم الإصغاء والابتسام.

١٢ـ إذا هششت للناس وتبسَّطت وتسهَّلْتَ ظن من ينصب الحبائل للناس ويدبر الوسائل لاقتناص الكسب منهم أنك لست ممن يَنْصب الشرك أو الشباك فلا يُعدُّ لك عدة، ولا يتخذ لك أُهبة، ولا يلجأ إلى الحذَر معك، كما أن ذوى السَذاجة يركنون إلى طيب قلبك، ويستنيمون إلى سلامة طَويّتك فتربح فى الحالتين.

١٣ـ الأغرار من الشبان ومن لم ينتفع بتجاربه من الرجال يرون أنهم يكسبون بالعنف والشدة فى كل معاملة أو معاشرة أكثر مما يكسبون بدهاء الخبرة ولباقتها وتأنيها فى معالجة الأمور، ويعدون كل هذه الصفات ضعفاً وعجزًا وجبنًا ورياء، وأنها صفات لا تليق، وهم فى عنفهم وشدتهم يَدّعون لأنفسهم الحكمة كما

يدّعى السكران بأنه غير مخمور ـ وقد يكون ادعاؤه مضحكًا يدلّ على أنه سكران، وإن أنكر ذلك إذ يترنّح ويتلعثم ويتلجلج ويخلط ولا يبين فى كلامه، ويتكلف الاتزان ويتغاضب تارةً ويعاتب تارة، وهذا أيضًا شأن الأغرار، الذين ليس لهم إلاّ سبيل العنف.

١٤ـ إذا كان لك فضل فليس السبيل إلى اعتراف العقلاء المبصرين والدهاة، ولا إلى اعتراف من يغمط الناس حق فضلهم وهم كثيرون، أن تكبّد الناس بمباهَاتهم به فى الأحاديث والمجالس وبأن تظهر لهم أنك تعرف من فضلك أكثر مما يعرفون، فإن الناس فلما يغتفرون لك ذلك ويعدّون فضلك إساءةً اليهم وإنْ اعْترفوا به سرًا أو جهرًا، وهم يحاولون انتزاع اليقين والثقة به منْ نفسك بأساليب مختلفة، ولكنّك قد تحملهم بالملاطفة وسياسة التأسى وأساليبها على اغتفار الفضل لك ـ وكذلك إذا كان لك فضل على إنسان بأن صفحت عن ذنب له أو إساءة أو زلة أو إذا كنت قد انتشلته من وهدة سقطة كاد يتردى فيها وأزرت به، فليكن همك أن تنسيه فضلك عليه واطلاعك على سيئاته وموضع النقص منه، فإن كثيرًا من الناس يحقدون على من اطلع على زلاتهم ونقائصهم وإن كان اطلاعه عليها من ناحية انتشاله إياهم من وهدة زلتهم ومعونته لهم وإنقاذهم من عواقبها، فإن تلك المعونة وذلك الإنقاذ لايشفعان لاغتفارهم اطلاعك على نقصهم، وفضلك فى ذلك لايشفع لك، بل يزيد حزازة حقد من تفضلت عليه، إلاّ إذا كانت لك لباقة تنسيه فضلك عليه واطلاعك على نقصه، وقد يكون مثلهم مثل المرأة التى لطمت سائق الترام الذى رآها قد زلت قدمها وكادت تسقط تحت الترام فجذبها إلى نفسه وأنقذها من الموت.

١٥ـ الناس قلما يغتفرون ذنب من إذا شرعوا يحدثونه أسرع إلى إظهار معرفته للحديث، وبعض الأغرار ومن لم ينتفع بتجاربه لهم ولع عجيب بهذا التسرع إلى إظهار معرفتهم حديث المحدث ـ كأنهم يخشون أن يحسب الناس أنهم قد فاتهم شىء من أمور العلم والدنيا لم يدركوه ولم يطلعوا عليه قبل حديث المحدث، وهو اطلاع لا يزيدهم فضلاً بل نقصًا فى نفس المحدث الذى لايهمه أن يزن قدر علم من سبقه، وإنما يهّمه ألا يسلب منه جليسه كرامة نفسه وألا يشعره الاستخذاء.

١٦ـ ينبغى للعاقل ألا يُظهر الامتعاض والغضب إذا ظهر عليه إنسان بالحجة أو بذَّه شأوًا وشأنًا أو مزح معه مزحًا مستكرهًا، بل الكرامة والربح فى أنْ يكظم غيظه وأن يسرّى عن نفسه وأن ينظر إلى هذه الأمور كأنه يشاهد مشهدًا فى عالم آخر من غير تصنع للكبر المضحك المغالى فيه والذى يجعله كالممثل الهازل، ومن غير شجار أو مهاترة؛ لأنه بهما يضيع كرامته، ومن غير أن يأذن لفكره وذاكرته فى معاودة هذه الأمور فيتعب، ومن غير أن يلجأ إلى التعويض فى ثنايا كلامه بالسخر المعمى أو الواضح، وهذه أمور قد تسبب عداوات وتارات قد يشترك فيها أصدقاء خصمك وأقاربه، فكأنك أثرت حول نفسك النحل من خليته، وأقل ما فى هذه الأمور من الضرر إذا لم يتخذ خطة متسعة النواحى لاغتيابك أن يأذن ويبتسم صامتًا لمن يغتابك كما قال الشاعر.

فسامُع الذم مقرّ به وقابل الغيبة كالقائل

١٧ـ كثير من الناس لايميزون بين التسامح والتسهل فى المعاشرة وبين التمليق والنفاق، فيأبون التسامح ويرفضون التسهل، ويضّحون بحسن المودة وطيب العشرة بأن يراجعوا كل إنسان فيما يصف به نفسه أو ينسبه إليها أو يغلطوه أو يكذبوه أو يكثروا من مخالفته، مع أن بعض الناس يَعُدُّ القليل من مخالفه تكذيبًا ـ ويفعل المغلّط المراجع المقاطع ذلك بدعوى نصرة الحق والانصراف عن التمليق والنفاق، وإنما يفعل ذلك خشية أن يظهرإنسان بفضل يدعيه أو رأى يرتئيه أو حجة يدلى بها وتوهم المغلط المقاطع نفسه أنه إذا لم يفعل ذلك أضاع كرامته ولم ينصر الحق وأعان على الباطل بسكوته وكأنما تنهد الأرض وتسقط السماء إذا لم يفعل ذلك، فلا يميز الكبائر من الصغائر، وإنما يكون الباطل الذى يحارب ما تخنل به أمور الناس لا مايتسهل ويتسامح فيه العشير فى العشرة.

١٨ـ أحسن ماتكون الفضيلة إذا أرادها المرء كما يريد نظافة جسمه للراحة والصحة والعافية لا للمباهاة، وكما أن المرء لايطلع الناس على نظافته ولا يلفتهم إليها ولا يحدثهم بها، كذلك الحازم العاقل لايحدث الناس عن فضيلته.

١٩ ـ فى أكثر الأحايين إذا قال الإنسان قوله مزح بريئة جرّ إليها حديث محدثه وكانت صلتها بالحديث أو بإنسان مذكور فيه تفسرها فإنها تنقل إلى إنسان آخر له صلة أيضًا بالحديث مبتورة ويخفى ناقلها صلتها بحديثه فتخرج عن معناها وتصير «إهانة» ولو أن ناقلها ذكَر حديثه وصلته به ماكانت إهانة فيحسن تجنب المزح البرىء اعتمادًا على صدق الناقل؛ إذ كيف تكفل صدقه؟

٢٠ ـ الحازم لايشارك المغتاب بالكلام ولايشاركه بالإصغاء والسكوت، فقابل الغيبة كقائلها، وإنما يجمل أن يقول: إنه لايعرف من أمر الغيبة شيئًا، وهو إذا لج فى إنكارها جنى فوائد: منها أن الناس تبرّئه من الغيبة وتعدّه غير متتبع أخبارهم فيقل حذرهم منه، وكلما أمعن فى إظهار الجهل والإنكار أكثروا من تعريفه ما يدعون معرفته من أخبار غيرهم، إذ أن الناس منهومون بادعاء معرفة أخبار الناس وأسرارهم، وكلما قلتْ معرفتهم زادت نهمتهم باطلاع معاشريهم على ما يدّعون معرفته، ومنهم من يستطيلُ بادعاء صداقة الناس بالباطل؛ كى يستطيل بادعاء معرفة أخبارهم وأسرارهم بالباطل أيضًا.

٢١ ـ فى الناس أصناف يجمل ألا يشركهم العاقل فى خاصّة شئونه، ولا أن يُطلعهم على بواطن أمره وأخباره وأسراره، ومن هؤلاء الغرير الجاهل؛ فإنه يذيعها كى يعرف أنه عالم بالناس، والخائن كى يوهم الأغرار أن غيرهم قد ائتمنه، والماكر الداهية كى يفيد من إذاعته مايستطيع، والخبيث إذ أنه يحولها مادة صالحة للأذى يؤذى بها من أشركه فى أمره، والزميل الذى ربما جعلته الحياة منافسًا فيتخذ منها مادة لمنافسة زميله وتنقصه كى يفوز فى موضوع المنافسة بدلاً منه، والمنافس مهما كان شهمًا ذا مروءة لايؤتمنُ على سر أو خبر أو شأن خاص، إذ أنّ المنافسة قد تحمل الناس على الانصراف عن سبيل المروءة حتى يفوزوا فى المنافسة، ثم يعودون إلى مروءتهم وشهامتهم بعدها.

* * *

نظرات أناتول فرانس[1]

■ ٥ ■

أناتول فرانس هو الاسم الذى اشتهر به كاتب من أكابر كتَّاب القرن العشرين، وهو فرنسى كان أبوه يبيع الكتب، فنشأ مولعًا بالاطلاع، ولكنه كان يخالط الناس ويتَقَصّى أخبارهم، وقد جمع فى كتبه بين السخر والحنان والتسامح والرأفة بالضعفاء والفقراء، ولكن عقله لم يكن من العقول التى تَتَشَبَّثُ بمبدأ من مبادئ الفكر لا يتعداَّه ولاينظر إلى غيره، بل كان ينظر إلى جوانب كل أمر حتى أنه قد يَنْطِق بعض أشخاص قصصه بآراء مختلفة إذا اختلفت حالات نفوسهم، ثم يكون أول من يَلفِت إلى هذا الاختلاف، وقد برع فى القصص الطويلة كما برع فى القصص القصيرة.

ومن قصصه الشهيرة قصة (تاييس) وهى كما قال أستاذ كبير تشبه قصة (هاييشيا) للقصصى الإنجليزى شارلز كنجزلى، ولكن الشبه جاء من ناحية تقارب عصرى القصتين، وعند التمحيص يختلف أشخاص القصتين، وأناتول فرانس قلما يُجارَى فى تَذَوُّقه لفنه، ومن كتبه قصة (كتاب صديقى) وفيها انتشى من نفحات الطفولة والصبا وجمع إلى ذلك دقة الملاحظة ونضْج الذهن، وله قصة الثورة الفرنسية الكبرى، واسمها (الآلهة ظمأى) وليس فيها عنف فلوبير فى قصة سلامبو عن قرطاجة؛ ولكن تحت هدوء فنه يحس القارئ مرجل الثورة يفور وكان همه أن يفسر روحها، ومن كتبه الشهيرة (حديقة أبيقور) وهو نظرات فى النفس والحياة، وكتاب (الحياة الأدبية) وهو مقالات فى النقد والأدب، و(طموح

(١) المقتطف: مارس سنه ١٩٤٨.

جان سرفان) و (قصة ممثل) و(سلفستر بونار) و(آراء الأب كوانيار) و(الحجر الأبيض) و(ثورة الملائكة) وفى الكتاب الأخير يميل إلى الروح الإغريقية القديمة، ومن كتبه المؤثرة (حياة جان دارك) و (جوكاستا) وله قصص أخرى عديدة بعضها يغلب عليه السخر، وبعضها يغلب عليه النقاش الفكرى أو وصف تاريخ فرنسا وحياتها فى عهده، ويتردد أشخاص بعضها فى أكثر من كتاب، وبالرغم من عداء رجال الكنيسة له فقد أنصفهم فى وصف بعض أشخاص الكنيسة فى كتبه، وقد اعتنق المذهب الاشتراكى فى أواخر أيامه. ويمكن أن يقال بالاختصار إنه بالرغم من سخره كثير التسامح كثير الحنان.

ومن نظراته ما يأتى:

١ ـ كنت وأنا طفل صغير أقرأ كتب الزهاد المترهبين من ذوى التقشف، فأحدث ذلك عندى رغبة فى أن أكون راهبًا زاهدًا مُتَقَشِّفًا وامتنعتُ عن الطعام وحاكيت حياتهم، فقال أبى يصفنى «إنه مجنون» فعزيت نفسى وقلت: إنَّ أبى فى الحياة الأخرى سوف لاينال ما سأنال من جزاء على الزهد فلا يقاسمنى مجده ولا يشاركنى فيه فأختصَّ به دونه، فلم يؤلمنى تَنَقُّصُهُ لى واتهامه إيَّاى بالجنون، وانشرح صدرى وسُرَّت نفسى، وهذا إحساس يشترك فيه الصغار والكبار؛ فإنَّ الرجال قد يودون صديقًا ويرجون له كل خير فإذا خالفهم فى أمر سُرُّوا بحرمانه المأمول من خيره المنظور وعزُّوا أنفسهم بالاختصاص به دونه، وإن كانوا صادقين فى مودته.. وكذلك الحال بين الأحبَّاء... وقد يزداد هذا السرور بحرمان المخالف حتى يصير تَشَفِّيًا وانتقامًا كريهين.

٢ ـ كان الدرس فى حصة الآنسة لافورت المعلمة فوضى من الاضطراب، وكان عندها شىء من الذهول وقلة المبالاة، فإذا لَجَّ الصخب فى تنبيهها هجمت على أى تلميذ وضربته ثمَّ تعود إلى تبلُّدها وذهولها.. وهكذا الدنيا قد تعاقب من ليس أحق بالعقاب، والعاقل من حاول أن يطامن نفسه على تَلَقِّى ضرباتها كما كان يصنع تلاميذ المعلمة لافورت.

٣ ـ أهمُّ ما فى التضحية هى التضحية ذاتها، أمَّا أنَّها فى أمر غير حقيقى وأنها

لاتعود بفائدة ولا عائدة فهذا لايقلل من قيمتها ما دام صاحبها الذى يؤدِّى ما تفرضه عليه التضحية يجد إليها اطمئنانًا، ويحس فيها راحة، ويراها أمرًا واجبًا، وأنها عائدة من غير شك بالخير، وهذا هو الذى يسوِّغها.

٤ ـ كنت إذا غايَظْتُ تلميذًا صغيرًا مثلى يُهَوِّنُ على ذنبى إليه شعورى بعظم ذنبى... وهكذا الكبار أيضًا يهوِّن عليهم ذنوبهم إحساسهم بالذنب، ويشعرون كأنما قد كَفَّرُوا عن ذنوبهم به حتى صار كأن لم يكن ـ وهذا قد يدعوهم إلى الاطمئنان وإلى معاودة تلك الذنوب.

٥ ـ كنت قد اعتزمت وأنا صغير أن أكتب تاريخ فرنسا فى خمسين مجلدًا، ولكن منعنى أنى لم أستطع معرفة تاريخ أول مَلِك، ومن ذلك الحين أحمد للصعوبات فى الحياة فضلها وأشكر صنيعها، فكم أَنقذت من ورطة وكم أسعفت بخيبة فى طيها نعمة، أمَّا صديقى فونتانيه فإنه يمرق بين أرجل الصعوبات (إن كانت لها أرجل)... كما يمرق أطفال الشوارع بين السيارات السريعة.

٦ ـ عندما طلب منى القس فى الكنيسة أن أعترف (وهذا أمرٌ يؤديه الكاثوليك) أدركتنى الحيرة؛ إذ كنت صغيرًا لا أُميِّزُ صفات أعمالى، ولا أعرف أيها أعد ذنبًا، فحاولت أن أتذكر ذنبًا جنيته كى أعترف به للقس فلم أستطع، فاعترانى الخجل والأسف إذ لم أجد ذنبًا، ثم تذكرت إتلافى قُبَّعَة صديقى فونتانيه فارتاحت نفسى وتعاظمت لدىَّ وقلت: الآن أستطيع أن أعترف بذنبى من غير خجل أو شعور بالنقص... وهذا قد يفسر لنا فخر الكبار بذنوبهم فى بعض الأحايين ومباهاتهم الناس بها.

٧ ـ مما علمنى حب الصغار المحافظة على التقاليد والعُرْف المألوف، بالرغم من طيشهم وثورتهم عليه فى بعض الأحايين، إنَّ عمى كان قد صنع لى حقيبة كتب جديدة من شىء لم يكن حقيبة كتب ولا كانت حقيبتى كحقيبة التلاميذ، فجعلوا يسخرون ويضحكون ويبتكرون الفكاهات إزراء بها، ولكنهم لم يفكروا فى السخر من حقيبة كُتُب صديقى فونتانيه، وكانت قديمة ممزَّقة مُرعبَلة، ولكنها كانت على شكل حقائب الكتب، فكان لاشك فيها، وهذا يذكرنى قول (وردزورث) الشاعر الإنجليزى (إنَّ الطفل أبو الرجل) فهذه الغرائز والطباع

موجودة أيضًا فى الكبار، وهم يسخرون من كل جديد؛ لأنه يخالف المألوف.

٨ ـ كنت وأنا غلام صغير أذهب إلى حلاَّق كى يقص شعرى، وكان يحكى لى أثناء الحلاقة (كما هى عادة الحلاقين) كيف أنه كان فى سفينة فى عرض البحر تحطمت واضطر ركابها أن يأكلوا إنسانًا منهم، وكان يهش ويبتسم وهو يحكى لى كيف أكلوا اللحم البشرى، وكأنما كانت هشاشته هشاشة المتفائلين بالحياة المؤمنين بالإنسان، ولا يرون إلاَّ جانب الأمل فى حياته... ولا غرابة فى اطمئنان ذلك الحلاَّق، فإنَّ الناس كثيرًا ما يأكلون اللحوم البشرية على سبيل المجاز والاستعارة كما يصنعون فى استغلال الضعفاء المحرومين والنساء والاقتتال على النظريات، وكما يصنعون فى الغيبة والنميمة فى حياتهم اليومية، وفى إهمال المُشَرَّدين من الأطفال وغيرهم.

٩ ـ كانت حياتى فى الطفولة حياة صغيرة، ولكنها كانت (حياةً) أى أنها كانت عندى قطب الدنيا ومركز الكون ومحور العالم، وكل حى حتّى ولو كان كلبًا صغيرًا يحس كأنما هو مركز الكون ومحور العالم.

١٠ـ كنت فى صغرى مدَلَّلاً مُنَعَّمًا على قدر مايستطيع أهلى من التدليل والتنعيم، وكنت أجد لذة فى حياتى المنزلية كما يحك العصفور الصغير جانبه بريش عشه الناعم لذّة وسرورًا واطمئنانًا، ومع ذلك فقد كنت أحسد غلامًا صغيرًا مُشَرَّدًا، وكنت أراه من نافذة منزلى، وكان أبواى يمنعاننى من مخالطة أبناء الشوارع، وكانت أم ذلك الغلام تتركه حُرا طليقًا قذرًا ممزق الثياب وتذهب كى تكسب قوتها بأن تغسل ثياب الناس، فلم تكن تقيده تكاليف الحياة، وكان يخيل لى أنه كان ينظر إلىَّ كما ينظر العصفور الطليق إلى العصفور الحبيس... وهذه الفكرة تذكرنى قصة من تصنيف (ستاسى) أو (مونييه) القصصى الإنجليزى الذى تتبع فيها دائرة الحسد، فوجد كل إنسان يحسد من هو أحسن منه حالاً حتى إذا بلغ أكبر محسود وجده وقد سئم تكاليف حياته وقيودها وهمومها يحسد أحقر حاسد ولو كان صعلوكًا متشردًا حسبه حرا طليقًا غير مقيد بتكاليف الحياة.

١١ـ عندما نبحث عن الحق كثيرًا مانجده أمرًا مألوفًا وإن كان غريبًا قبل

معرفته، ولكن تلك الغرابة تُحَبِّبُهُ إلينا ولو لم نشعر بالغرابة لمللناه وضجرنا به، والمراد حقائق النفس والحياة التى نشاهدها ونغفل عنها، كأنما قد غُطّيتْ عنا ولُبّستْ علينا.

١٢ـ كانت عندنا خادم ريفية سمحنا لها مرة أن تذهب إلى باريس. وبعد عودتها سألناها ماذا رأيت فى باريس؟ وماذا أعجبك منها؟ قالت الفجل! رأيت فجلاً كبيراً، إنها رأت كل ما تُستطاع رؤيته من حضارة باريس ومبانيها ومافى نوافذها وشوارعها ومتنزَّهاتها، ولكن لم يعجبها الا أنها رأت فجلاً كبيراً... وهكذا بعض الناس فى الحياة يرون ماتعرضه عليهم، ثم لايعجبهم منه إلا ماهو شبيه بالفجل فى نظر الريفية.

١٣ـ إننا نرى الأطفال لايستطيعون أسهل الأمور والأعمال إلاّ بعد الدربة والمزاولة، وننسى حقيقة أولية، وهى أن هذا يصدق أيضًا فى الكبار كما يصدق فى الصغار، فإن كل عمل مهما هان يصعب حتى يتعوَّده من لم يتعوده من قبل.

١٤ ـ إذا كان لبعض الأمهات ابن ذكى وسألتها جارة عن سنه أصغرت عمره وقللت سنه؛ كى تظهر على جارتها وتنتصر وتعلو؛ إذْ أنها تعرف أنه من المحال أن يكون لجارتها ابن صغير ذكى فى مثل السن التى ادعتها لابنها وهى إذ تستثير إعجاب جارتها تستثير حسدها..... ومن الأمور المتناقضة فى النفس أن الذى يباهى الناس ويستفز حسدهم بالمباهاة لايمنعه ذلك من محاولة إخفاء كل مايمكن أن يحسد عليه فى حالات نفسية أخرى إذا أزعجته عاقبة الحسد، وبعض الأمهات وغير الأمهات يخشينَ صولة القدر المفاجئة وضربته المباغتة إذا كنَّ فى سعادة وغبطة وحبور، وهن فى ذلك مثل الأمهات الأثينيات قديمًا اللواتى كنّ يضعنَ أطفالهنَّ عند قدمى تمثال نميسيس (ربة الحسد) ويتضرعن إليها أن تغتفر لهنَّ سعادتهنَّ بأطفالهنَّ خشية أن تصيبهم ربة النقمة والحسد بمكروه، وبالرغم من أن خيال الوثنيين قد خيل لهم ربةً للحسد فإن للناس افتنانًا عجيبًا باستثارة إعجاب الناس واستفزاز حسدهم وهم يخشون هذا الحسد ويعلمون أنه كثيراً ما يحيق بهم السوء منه من غير استثارة واستفزاز لميل كثير من الناس إلى إلحاق الأذى بمن

يحسدون، والحسد ـ وأن عَمَّ ـ من الغرائز الموروثة بسبب هذا النظام الاجتماعى.

١٥ـ سأل أندريه الصغير أمه وقد مات أبوه: هل مات أبى وذهب عنا ولا يعود؟ قالت: نعم، فصمت قليلاً، ثم قال: هذا شىء حسن لأنى أحبك كأنى أحب اثنين، وإذا عاد أبى إلينا لا أجد فى قلبى شيئاً من الحب أخصه به، وهذا ما أخشاه. وإحساس أندريه الصغير هو الإحساس الذى بنى عليه (فرويد) نظريته فى حب الابن للأم وغالى فيه حتى جعله مثل حب (أوديب) لأمه وهو لايعرف أنها أمه، وهذا قياس محال، وقصة الملك أوديب قصة معروفة من قصص قدماء الإغريق.

١٦ـ المراهقة وأحلامها قد تسبب للمراهق حزنًا، ولكنه حزن مملوءٌ بالسعادة، فتلتقى التعاسة والسعادة فى وقت واحد، ولا غرابة فإن من الناس مَنْ يأنس إلى المحزن ولو سُلِبُ منه أحسَّ فراغًا فى نفسه وحياته.

١٧ـ من الخطأ المضحك أن يحزن إنسان أو يَتَملَّكهُ الغيظ إذا ابتكر نظرية فوجد ما يثلمها ويهدمها؛ إذْ أن النظريات ما خُلقَتْ إلاَّ كى تكون هدفًا للرماة، وكى تصاب حتى تزول كما تزول الفقاقيع، وإحساس المرء بالغيظ إذا عُورضت نظريته حماقة وضيق ذهن وأثرة ونقص.

١٨ـ وجد الباحثون بعد البحث والتقصّى أن القصص الخرافية والأساطير الشعبية موجودة أمثالها عند شعوب لم تتصل فى ماضى تاريخها ـ وهذا قد يجعل المفكر يرى أن اعتقاد بعض المؤرخين أن الحضارة نشأت فى بقعة من الأرض وانتقلت منها إلى باقى البقاع فيه غلو؛ إذْ أن عقل الإنسان أساسه مشترك ومهيئات الحضارة كثيرة متنوعة، والمعروف أنها تنمو بتبادل الآراء على طرق المواصلة، فليس أشحذ للذهن منها، وأما قول بعض المؤرخين إن جمهور الناس لو ترك وميله، حدثت له رجعة ونكسة وإنه أميل إلى التخريب، وإن سطح الأرض مكسو بالحضارات التى هُدمَتْ وخُرِبَتْ فلا ينفى ماذكر، والحقيقة أن الخلاف خلاف لفظى محصور فى تفسير معنى نشأة الحضارة، فعند أية مرحلة يُعْتَرفُ بالنشأة؟ نعم قد تسبق بعض الأمم غيرها فى نُموّ الحضارة، ولكن النموّ

غير النشأة.

١٩ـ كان معلمنا المسيو شوتار جبانًا يخشى الكلاب واللصوص والرعد والعربات فى الطرق، وكان يخشى كل ما قد يؤذى الإنسان، ولكنه كان إذا وصف الحروف والوقائع فى دروس التاريخ وما قاساه الأبطال فيها من آلام وجروح ومشاق وما لاقوه من العذاب والموت، برع كل البراعة، وكان يخيل له أنه يقاسيها معهم ويقاسمهم مجدهم، وكان يجد لذة فى إهلاك الجيوش الكثيرة بحيل قديمة، أو مبتكرة يتخيلها، وهكذا شأن كل جبان يحاول أن يعوّض نفسه عما فقد من الشجاعة إما بادعاء الشجاعة، وإما بوصف أعمال الشجعان والأبطال، ويجد فى ذلك مايعينه لاحترام نفسه، ولذته فى وصف إهلاك الجيوش الكبيرة بوسائل مبتكرة، من القسوة التى كثيراً ما تلازم الجبان، وأكثر الناس بهم شىء من الجبن حتى ولو كانوا شجعانًا، وقد قال أحد الأبطال: (من زعم أنه لم يخف قط ولم يجبن قط فهو أكبر كاذب) وإنما العبرة بما تئول إليه النفس بعد التغلب على الخوف عند مفاجأة الخطر وبعد أول وهلة، ومن المعروف أيضًا فى الاختلاف بين الطبع والقول أن بعض الكتاب المتزمتين فى حياتهم يولعون بتصنيف كتب المجون كأن أنفسهم تريد أن تأخذ حظها مما فَاتَها منه فى الأعمال بتنميق الأقوال فيه والافتنان فى أساليبه بالكتابة، وقد تكون صفتهم العجز عنه لا التزمت، فيلجئون إلى ما يلجأ إليه هؤلاء من زخرف القول.

٢٠ـ شغف بعض الناس بالمعرفة ناشئ من البغض أو الحسد، ولكن ضعفى بالمعرفة كان شغف من يود أن يألف الأشياء والحيوان والإنسان، لاشغف من يتخذ المعرفة أداة الأذى، وكل ما رأيته أو سمعته كان يهيئ لى وسائل هذا الشغف ويعيننى على الإحساس بعناصر الحياة وأسسها.

٢١ـ كان دوسيل رجلاً فاضلاً محبا للحرية، ولكن الثوار المتطرفين حبسوه فى أثناء الثورة الفرنسية الكبرى، فصرخ ممتعضًا قائلاً: أهذا جزاء خمسين سنة قضيتها فى مناصرة الفضيلة والحرية؟ وهذا يذكرنا غيظ بارناف عندما ساقوه إلى المقصلة (الجيولوتين) كى يعدم، وكان من الذين ناصروا الثورة من أول نشأتها

ونشأته» فدقَّ الأرض بقدمه من الغيظ وقال: أهذا جزاء مناصرتى للحرية وعملى على تحقيقها؟! ويذكرنا أيضًا غيظ كاميل ديمولَن، وهو من أوائل المنتصرين للحرية عندما ساقوه إلى الإعدام فمزَّق ثيابه من الغيظ وقال للجمهور: ألست أول من دعاكم إلى الثورة على الاستبداد؟ وكان الجمهور يهزأ به ويضحك ويسخر منه، وكم من إنسان فى هذه الدنيا يفعل كما فعل هؤلاء ويحس كما أحسوا إذا غمط حقه ووكس حظه ووجد جزاء الخير شرًا، وجزاء العمل تثبيطًا لتضارب الآراء وتنازع المصالح، والعاقل من لايجعل جزاءه بإظهاره الغيظ سخر الجماهير اللاهية عنه فى أثناء اقتتالها على الحياة وتنازعها المنافع كما فعل هؤلاء.

٢٢ـ قد علمتنى المدرسة أن التلميذ الصغير كثيرًا ما يعجب بما يقرأ، أو بما يلقى إليه من غير فهم أو إدراك للمعنى، وإنما هو يلتذه بإحساسه وخياله، أو بالإيحاء أو قدرة من يقول: إنه فاهم أو يدَّعى الفهم أو يخشى أن يُتهم فى عقله.

٢٣ـ ماتت جدتى وأنا صغير وبالرغم من خيبة أملى عند ماسمعت العصافير تغنى وكل شىء فى الدنيا كان كأن لم تمت جدتى، فإنى كنت أحس إحساسًا غامضًا أن جمال الأشجار وبهاء السماء وأصوات الأحياء أمور كلها متصلة بما يسمونه الموت وبه يتجدد.

٢٤ـ لابدَّ أن نتخلى عن كثير من أمور ماضى العالم، ولكن ينبغى ألا نتخلى عنها كلها، وأن نكون فارغى القلوب والعقول منها؛ لأننا لانستطيع بناء المستقبل إلاَّ بمادة الماضى.

٢٥ ـ من أهم أسباب سعادتى أنى كنت دائمًا إذا رغبت فى شىءٍ وأعوزنى الحصول عليه واستعصى علىّ، لا أكيد نفسى بالحزن والغيظ لفواته، بل أستعيض عن ذلك بأن أتخيل أنى حصلت عليه وحزته وتمتعت به، وقد أكسبت هذه العادة تخيل التمتع به شدة فى الوضوح وأثرًا بالغًا فى الإحساس ومسرة كمسرتى بالحقيقة. فكان الخيال يغنى عن الحقيقة، ونعمة الخيال هذه لاشك

فيها، إلاَّ أنها قد توهن قدرة المرء على العمل، ولاسيمَا إذا كان بطبعه يميل إلى الكسل ويحتاج إلى الراحة فتسبب خيبة الكسالى.

٢٦ ـ كنت فى صغرى عظيم الثقة بالحياة شديد الإيمان بها، بالرغم مما كانت تلحقه بغيرى من الشقاء والتعاسة والمصائب، ولكل إنسان نصيب من هذه الثقة بالحياة حتى بالرغم مما تلحقه بذاته من الآلام والشقاء وإن كان يرى أنه أحق من غيره بالسعادة وبالعصمة من الشقاء ـ والآن صرت أفرق من كلمة الغد وأخشى المُقْبل من الأمور والحوادث، وقد فقدت ثقتى بها التى كنت أعتز بها فى الشباب، ولكنى لا أزال أحب الحياة كما يُحب العاشق عشيقته التى فقد ثقته بها.

٢٧ ـ كانت أمى تعظنى وتمنعنى من مخالطة الصغار المُشرَّدين فى الشوارع وتقول يا بُنَىَّ لاتحسب أنَّ ذلك من جناية جنوها، وإنما جنت عليهم الحياة فصرت أرحمهم بدل أن أحسدهم على نعمة الحرية التى فى التشرُّد، حقّا، لقد علمتنى أمى من صغرى بقولها هذا ألا أغتر وألا أخدعَ بقول الأثرياء السعداء: إن الأشقياء إنما كانوا أشقياء بسبب ما جنوه على أنفسهم... وهم إنما يقولون ذلك كى يسوّغوا إغفالهم إصلاح مساوئ الحياة.

٢٨ ـ حبَّبَ إلىَّ الخيالُ وقراءة الكتب حياة الترهب والتقشف وامتنعت عن الطعام، فسألتنى أمى عن سبب ذلك وقد راعها أن ترى طفلها الصغير تبدر منه بادرة الرغبة فى الزهد، فقلت إذ سألتنى يا أمى إنى أفعل ذلك كى أكون شهيراً ذائع الصيت وأطبع بطاقة أكتب فيها اسمى وأكتب تحته (الزاهد الشهير فى الدنيا) فصرخَتْ أمى: لقد فقد ابنى رشده قبل سن الرشد، فقال أبى: لاتزعجى نفسك، إن الدنيا ستعلمه الزهد فى الشهرة قبل أن يزهد فى الحياة... وقد فعلت، لقد علمتنى الدنيا الزهد فى الشهرة قبل الزهد فى الحياة، وما من مرة عاودتنى فيها الرغبة فى الترهب والزهد إلاَّ جَدَّدَتْ الحياة فى نفسى الرغبة فى مقاسمة الناس أعمالهم وأن أجد السعادة فى ذلك.

٢٩ ـ لو عاشت أمى لسَرهَّا أن تجد أكبر فضيلة لى فى التسمُّح مع الناس ولو

وجدت أن أكبر نقص لى فى الشعور بهذا التسمُّح؛ لأن التسمُّح لا تتم فضيلته إلاَّ إذا كان أمرًا طبيعيًا يصدر عن المرء من غير شعور بأنه يتسمَّح ومن غير اعتداد به.

٣٠ ـ إن للأطفال منطقًا عجيبًا، ولكنه مستقيم ـ لقد قالت جيسى الصغيرة لخالها: إنك لابدَّ أن تحبنى يا خال؟ قال متفهمًا: ولماذا أحبك؟ قالت: لأنى صغيرة. كأنها تقول: إن الصغير الضعيف أحق بالرعاية، وإن الضغيف أحق بأن ينال مايحتاج إليه، ووجه الخلاف فى هذا المنطق أن الإنسان لاينال دائمًا فى هذه الدنيا ما يحتاج إليه، ولكنه خطأ طبعى من جيسى الصغيرة؛ لأنها لاتعرف الدنيا ونظامها.

لم يتسع هذا المقال إلا لنظرات قليلة من كتاب واحد من كتب أناتول فرانس العديدة، وهو القصة المسماة (كتاب صديقى).

* * *

تكملة نظرات أناتول فرانس[1]

ـ ٦ ـ

١ ـ كان جان أيلو (السمَّاك) قليل الكلام، ولكن كلامه كله كان مقصورًا على ذكر المصائب ووصفها كمصائب أقاربه الذين ابتلعهم البحر وهم يصطادون السمك، وعلى كثرة ذكره المصائب لم أجده إلاَّ وادعًا مطمئنا، كأنما يجد فيها كلها خيرًا؛ لأنها أمرٌ مقدر ـ وهذا السمَّاك الجاهل يذكرنى حكمة (جويتى) كبير أدباء الألمان التى وصل إليها بالثقافة ورياضة النفس بعد العهد الذى أسماه عهد العاصفة والشدة وهى قوله: الرجل السعيد هو الذى يطمئن إلى مايريده القضاء كأنما هو الذى يريده ويرغب فيه إذا كان أمرًا محتومًا، وقد وصل جان ايلو إلى مثل هذه الحالة بالطبع والغريزة أو العادة.

٢ ـ وكانت خادمتنا ميلانى تمر كل يوم على صاحبات الدكاكين ويشوقها أن تحادثهنَّ، وكان كل حديثهنَّ مقصورًا على ذكر الأسقام والأمراض وأنواعها وآلامها وأوصافها، كأنما فى وصفها لذَّة لهنَّ، فإذا انتهين من حديث الأمراض ولَجْنَ حديث الجرائم التى تقشعر منها الأبدان ـ وهكذا تُرَفِّه الحياة عن بعض الناس حتى بأنواع غريبة مألوفة من أحاديث النكد والفزع والرعب.

٣ ـ يتَّفقُ فى بعض الأحايين أن يتنافر زميلان فى كل أمر، وأن يختلفا فى كل شىء، وأن يتشاجرا فى كل خلاف، ومع ذلك تكون بينهما رابطة وثيقة وصلةٌ متينةٌ وألفة دائمة أساسها هذه المشاحنة التى تصير ديْدَنًا لا يستغنيان عنه، وعادة لاتتم سعادتهما إلاّ بها ودعامتهما إذا استراحا فترة من المشاحنة اتفاقهما فى أمر واحد كالسخر بمن عداهما من الناس.

(١) المقتطف: أبريل سنه ١٩٤٨.

٤ ـ كان فى طريقنا حانوت على بابه صنمان، وقد علمتنى أمى أن أراهما يبتسمان إذا أحسنت السلوك ويعبسان إذا أسأت، وكانت أمى تقول: اعمل خيرًا تبتسم لك الدنيا ـ وتوهُّمى ابتسام الصنمين وعبوسهما من الإيحاء النفسى، ولكنه مؤسس على حقيقة وهى أن المرء إذا كان راضيًا عن سلوكه وعمله سُرَّت نفسه، فتنعكس أشعة سروره على مرآة الدنيا.

٥ ـ قالت بلقيس: إن سكرة الفزع تسرى فى أوصال جسمى ليلاً؛ فإن للخوف أو الفزع لذَّة فى بعض النفوس أو فى بعض الحالات، وهذا يذكرنى قول (لفنجستون) الرحالة المستكشف وقد أوقعه أسد على الأرض ووضع قدمه عليه وكاد يفترسه ويقضى عليه لولا أن رجلاً قتل الأسد فقال لفنجستون: إنى كنت أشعر بذهول لذيذ من الخوف، ولعلَّ هذه اللذة فى الخوف من الأساليب التى تخفف بها الحياة فى بعض الأحايين ويل الآلام والمصائب، وربما يعترى مثل هذا الذهول كثيرا من الحيوانات التى تكون فريسة وطعمة لغيرها، ويذكرنى هذا قول (بيرون) الشاعر الإنجليزى: إن من رحمة الحياة أن الإنسان لايستطيع أن يتحمل إلاَّ قَدْرًا محدودًا من العذاب، فإذا زاد العذاب أُغْمِىَ عليه أو هلك، وهو فى الحالتين لا يحسه ـ ومما يذكر عن الجنود أن أشد الجروح قد لا تصحبها آلام فى بعض الحالات أو تصحبها آلام أقل من آلام الجروح الخفيفة.

٦ ـ كان لى صديق اعتزل العالم وعوّد نفسه ألا يفكر ولا يعمل خشية أن يكون لفكره أو عمله عواقب من الشر يصيب الناس ولا يتوقعه فَقُلْتُ له: إن امتناعك هذا قد يجلب الشر أيضًا وليس الفكر والعمل والقول ما يُقصر عليه مصير الإنسان والتحكم فى حياته، فإن حصاة صغيرة تنسلخ من جبل قد تكون لها عواقب كثيرة غير متوقعة، وامتناعك عن العمل قد يتخذه أناس طريقًا للخير والهداية فيقاتلون من لايعتنقها. قال صديقى: فلابدَّ إذًا أن يموت الإنسان حتى يسلم من عمل الشر، قلت: احذر من قولك هذا؛ فإن موتك أيضًا عمل، وكل عمل قد تكون له عواقب من الشر غير متوقعة.

٧ ـ زار جان سرفيان بيت صديقه ادجار، ورأى مظاهر الترف والنعيم، فشعر بنقص ووضاعة، وسألته أم صديقه قائلة: ما صناعة أبيك؟ قال مستخذيًا: إنه

مُجَلِّدٌ للكتب، وأحسَّ بالغيظ والنقمة على أبيه الذى اختصه بكل ما استطاع، وَوَدَّ ألا يراه أبدًا من الغيظ والحنق والشعور بالذلة. وكل ذلك بسبب زيارة قصيرة لبيت الترف، وهى زيارة لاتنفعه كما نفعه أبوه ـ وهذا يذكرنى اعتراف (جويتى) كبير أدباء الألمان أنه فى أحلام العظمة كان يجول فى خاطره أن أباه ليس الرجل الذى رباه، بل إن أمه حملت به سفاحًا من أمير جليل الشأن، ويذكرنى أيضًا قصة من قصص (جى دى موباسان) سمح فيها فلاح فقير لرجل غنى عقيم ولزوجه العاقر أن يَتَبَنَّيا ابنه وأن يربياه، وكان جاره قد رفض ذلك مستعزا بابنه، فلما كبر الغلام الذى رُبِّى فى النعيم وترعرع وزار القرية ورآه الغلام الفقير المستعَزُّ به حقد على أبويه حرمانه من هذا التبنى فى كنف النعيم ولعنهما وهجرهما وهما فى حاجة إليه فى كبرهما ـ وهكذا الإنسان ينسى فضل أقرب الناس إليه إذا غلبته الآثرة والغيظ والحسد والطمع.

٨ ـ وكان جان مغيظًا محنَقًا، وأحس برَّغبة فى أن يرى إنسانًا أو جمادًا ـ أو حيوانًا ـ يُشْبع منه نهمة غيظه وكرهه وقسوته ـ وهكذا الإنسان قد يُنَكِّلُ بمن لم يكن سبب غيظه إذا استشرى الغيظ وتملكه الغضب وفارقه الإنصاف ونزل إلى مرتبة الجنون أو الإجرام أو البهائم أو ما دون ذلك.

٩ ـ قال الأب سرفيان: تعلَّمْ يا بُنىَّ واشتهر، ولاتَخْش عند ما تصير وزيرًا أن تجلب لك المعرَّة بوضاعة أصلنا فإننا نختفى أنا وعمتك فى قرية صغيرة، فغضبت العَمَّة وأبت إلا أن تدبر أمور منزل ابن أخيها عندما يتعلم ويشتهر ويصير وزيرًا وألحت على أن تدبر شئونه وشاحنت أخاها وشاجرته، كأنما كانت تعاركه فى أمر قد حصل أو هو قريب الحدوث، وهكذا الناس فى حماقتهم يتطاحنون حتى على الخيال أو المحال.

١٠ـ قد يتسامح المرء فى الاختلاف العظيم إذا اطمأنت نفسه إلى عقيدته أو عرف أن خصمه لايستطيع السموق بفكره والتسامى برأيه إليه؛ كى يلم به ويستوعبه، كما كان يصنع الراهب لونجمار مع من ينتقد دينه وعقيدته، ولكنه قد يدركه الغيظ إذا خلط مناقشه ووضعه فى طائفة ليس منها وبينهما فى العقيدة والطريقة فرق قليل إذا كانت بين الطائفتين منافسة، وهكذا كان يغضب الراهب

لونجمار إذا نسبه أحد الناس إلى طائفة من الرهبان غير طائفته، وكان يقول: إن الرجل الذى لايستطيع التمييز بين الطائفتين لايستطيع أن يرى الذبابة فى اللبن، وهذا يدل على أن الطوائف المتقاربة قد تكون أشد تباعدًا ونفورًا بسبب قلة الخلاف بينها، كما يدل على أن الإنسان غريب الخلاف لنفسه، فيتسامح فى الأمر العظيم ويتحامق فى الأمر الصغير فى بعض الأحايين.

١١ـ إنك إذا اغتفرت لإنسان ذنبًا وكان اغتفارك ذنبهُ على سبيل الاحتقار له والزراية عليه والإزراء به والإصغار لشأنه والتهوين من أمره، فإنه قد لايغتفر لك صفحك وعفوك وكرمك إذا كان باعثك على ذلك الازدراء والاحتقار، وإذا عرف أن هذا كان باعثك، .وهذا بالرغم من استفادته من اغتفارك ذنبه والصفح عنه.

١٢ـ قد يثير وقار المعاتب الذى لايقبل الجدل من الغيظ أكثر مما تثيره ضجة المخالف الصاخب الذى يقبل الجدل ويقابل الصخب فيه بصخب مثله؛ لأن الأمر قد ينتهى عند ذلك ولا يخلف كبتًا ولا قهرًا فى النفس مادامت ضجة المخالف تقابل بضجة مثلها أو قد تكون معاودة بعد مثل هذا الخصام إلى الألفة والعشرة، أمّا وقارُ المخالف الهادئ الذى لايقبل جدلا ولاصخبًا فلا حيلة فيه ولاسبيل لدفع لومه وقد يسبب القطيعة والوحشة طول العمر.

١٣ـ إذا ثار ثائر وخاب وهزمَ عُدَّ مجرمًا عاصيًا، أما إذا ظفر ونجح عدَّ حاكمًا شرعيًا ـ قوله الشريعة والقانون، وأعداؤه هم المجرمون ـ فلو أن يوليوس قيصر هزم بعد عبوره نهر روبيكون فى زحفه على روما، ولو أن نابليون بونابرت خاب وقتل يوم انقلاب بروميير عندما ثار على الجمهورية الفرنسية الأولى، لَعُدَّا الآن من المجرمين ولم تعرف شرائع وقوانين باسمهما.

١٤ـ فى بعض الأحايين تستغل حكومة السلطة فى الحكم، فيخاف الناس أن تسقط إذا تعوّدوا تتابع الحكومات المستغلة، فتأتى بعدها حكومةٌ شرٌّ منها. وهذا يذكرنى قصة امرأة عجوز كانت تذهب كل يوم إلى بيت العبادة كى تدعو ربها أن يطيل حياة الطاغية الذى كان يحكم بلدتها سرقوزة، فعلم بها وأرسل فى طلبها. فلما مثلت بين يديه سألها: لأى أمر تدعو له كل يوم بطول العمر. فقالت أخشى

إذا مت أن يخلفك من هو شرٌّ منك. ويذكر هذا بقصة الجريح الذى سقط الذباب على جروحه وامتص دمه فأشفق عليه رجل، وأراد أن يبعد الذباب عنه، فرجاه أن يتركه؛ لأن الذباب الواقع على جروحه كان قد شبع من دمه، فإذا أزاحه عنها حلَّ محله ذباب لم يرتو من دمه بعدُ فيكون هو الخاسر.

١٥ـ كانت فلسفة (روسُّو) مؤسسة على أن الإنسان بطبعه مخلوق خيِّر طيب فاضل، وهى عقيدة لايعتنقها إلاَّ من لايستطيع الضحك ولا الابتسام، وقد ظهر تناقضها عندما اعتنقها ساسة الثورة الفرنسية الأولى وحاولوا تطبيقها، فقد كان (روبسبيير) يحسب أنه من المستطاع أن يبلغ الإنسان كمال الفضيلة، فاشترك فى حكم الإرهاب كى يبلغ به حد الفضيلة، فاضطرَّ إلى الإكثار من استخدام القتل عقوبة، وهكذا كل سياسى عظيم التفاؤل بهذه العقيدة يبدأ بقتل بعض الناس، ولو تُركَ يصنع مايشاء لقضى على الناس جميعًا أو على أكثرهم.

١٦ـ من العجيب أن كثيرين يضعون الإنسان فى فصيلة تشبه فصيلة القرود، ثم يغضبون إذا رأوا خصاله تشبه خصال القرود.

١٧ـ إنما كتبت قصة الثورة الفرنسية كى أوضح أن الإنسان لم يبلغ من الكمال حدا يمكنه من أن يكون عادلاً إذا عاقب بدعوى مناصرة الفضيلة، فالرحمة إذًا أقرب إلى العدل، ولن يتم عدل الإنسان إذا نظر إلى جانب العدل وحده وأهمل جانب الرحمة ـ ولكن الناس تثور وتقتل وترتكب الموبقات بدعوى مناصرة الرحمة أيضًا وإزهاق ما يخالف مبدأها.

١٨ـ قرأ لنا معلمنا المسيو كروتّو قصة مارسياس الإنسان الحيوانى الذى أراد أن ينافس أبُولّون رب الفنون الجميلة فقهره أبولُّون وقتله وسلخه، فارتعت ووجمت ولم أعرف كيف أسوِّغُ قسوة رب الفنون الجميلة إذ سلخ خصمه، وأخْلِقْ بمن كان رب الفنون الجميلة أن يُنزّه نفسه عن هذه القسوة الشنيعة وأن ينزه الناس عن قدوتها، وإلاَّ فبأىِّ شىءٍ تكون تلك الفنون جميلة إذا لم ينزه نفسه، ولكن عندما تذكرت أن صورة مارسياس تشبه فى خيالى صورة معلمنا كروتُّو الذى كنت أمقته، سهل علىَّ أن أغتفر لأبولون قسوته ـ وهكـذا الإنسـان يسوّغ الشر إذا

وقع بشبيه من يكره ولا يرى القسوة قسوة إذا قاساها من يعادى أو شبيه من يعادى.

١٩ـ أستطيع أن أقول قول (روسو): إنى لاأكذب إلاَّ لتأييد الحق ـ وإذا استرسل المرء فى هذا المنطق استطاع أن يسوّغ كل شر بدعوى تأييد الحق أو تأييد ما يخال أنه الحق وإن لم يتضح له ولم يتحقق بما لاشك فيه أنه الحق.

٢٠ـ كان من سوء حظ جان سرفيان وهو عائد إلى منزله أثناء ثورة الكوميون فى باريس أن قابل بعض الثوار تقودهم امرأة، ورأى الثوار أن جنود الحكومة يقتربون، فأرادوا الفرار، فقالت المرأة: نقتل هذا أولا وأشارت إلى جان ولم تكن تعرفه ولم يكن له ذنب بل كان من حزبها أو يميل إليه، ولكن المرأة استهواها حبُّ سفك الدماء فأطلقت عليه الرصاص ووقفت ترقص على جثته ـ وعدل هذه المرأة أو ظلمها مثل عدل أو ظلم كثير من الناس وإن ظهرا فى مظاهر أخرى؛ إذ أن من عادة الناس أنهم ينكلون أولا ثم يبحثون وقد لايبحثون.

٢١ـ كتَّاب الاعترافات يغالطون أنفسهم ويغالطون الناس؛ إذ يزعمون أنهم لم يخفوا عن القراء شيئًا من حياتهم وأفعالهم وخصالهم وخطرات نفوسهم، إذ أن هذا الاعتراف الكامل أمرٌ لن يستطيعه إنسان، ولم يستطعه جان جاك روسو، بالرغم من صراحته فى اعترافاته وذم نفسه والإساءة إليها.

٢٢ـ أعظم فائدة تفيدها حقائق الحياة أنها أساس يبنى الناس عليه آمالاً للحياة ليست فيها.

٢٣ـ مما جعلنى أغتفر للحياة آلامها أنى قرأت قصة لكاتب وصف فيها أناسًا لايغضبون ولا يحزنون ولا يألمون ولا يشتهون ولا يحبون، فرأيت أنه قد محا السرور والسعادة والجمال والشعر والفنون عندما محا آلام الحياة ومكارهها.

٢٤ـ كنت فى صغرى أحب أن أتودَّد إلى أقرانى، فيعترينى الحياء، فلا يكون جزائى إلاَّ السخر؛ لأن الحياء يبعث على الإحجام عن التودُّد والارتباك والتردد فيه، فلا يكون نصيب صاحبه إلاَّ السخر منه والانصراف عنه ـ وقد يخال ما به الكبر والصَّلَف والزهد فى الناس والتعالى عنهم ـ وهذا إذا لاقى من هو أكثر منه

جرأة، فإذا قابل من هو فى مثل حيائه كان نصيبه أيضًا الإهمال والانصراف عنه، فالناس كثيرًا ما يسيئون الظن بصاحب الاحتجاز والإحجام عن التقرُّب إليهم من حيائه وخشية أن يكون نصيبه فى تقرُّبه منهم النفور منه أو الإهانة أو السخر أو الازدراء، فكم منع الخوف من هذه الأمور من مودات وألفة وتفاهم، والناس معذورون؛ إذْ أن صاحب الحياء يشعر بنقص من أجله وقد يستره بالكبر، وقد يغالى فيستره بالخشونة والتجهُّم فى معاملة الناس.

٢٥ـ ربما كان أشد الناس اضطهادًا للناس هم الذين قاسوا آلام الاضطهاد وثاروا عليه ولكن معاناتهم له لاتَعِظُهُمْ، والمعروف أن الذين يريدون أن يغيروا نُظُم الحياة كما يشاءون يأبون على غيرهم أن يريدوا ما أرادوا، وقد يغالون فى ذلك.

وقد كان أحد أعضاء مجلس الشيوخ يرتعد إذا رأى شبانًا فى مظاهرة سلمية، ويود أن يستخدم الشرطة النار والسلاح لمنعها، وهذا الشيخ كان فى شبابه عضوًا فى كل جمعية سرية ثورية، وزعيمًا فى كل ثورة، ومن الأقوال المعروفة: أنك إذا أردت أن يتخلى ثائر عن حدَّته فاجعله وزيرًا فإنه يصبح من المحافظين، إذ أن مسئولية الحكم ونظرته إلى الأمور تَدْعُوَانِه إلى أن يرى من الأمر مالم يكن يرى قبل قيامه بأعباء الحكم.

٢٦ـ كثيرًا ما يحدّثك محدّث فيقول: سنرى قريبًا تغيرًا كبيرًا فى نظم الحياة وسننها، ولكن الأمور لاتتغير إلاَّ ببطء ـ ومادام الإنسان إنسانًا فإن طبائعه وغرائزه التى نشأت ونمت ورسخت فى مئات الآلاف من السنين لاتتبدَّل إذا تبدلت إلاَّ ببطء، فمثل الإنسان إذا غير نظام حياته وحسب أنه غير طباعه أو نسخها مثل من يغير ثيابه ويحسب أنه قد غير نفسه. وليس معنى ذلك أن نظم الحياة لايحسن أن تتغير، فقد قال أناتول فرانس فى مكان آخر إن: نظم الإنسان وشرائعه وقوانينه كثيرًا ما تكون مؤسسة على القسوة والظلم والمحاباة، فإذا لم تنظف من حين لآخر كانت كالحجرة المظلمة المهملة تحت الأرض تربى فيها الحشرات وتغزل فيها العناكيب خيوطها وبيوتها، فليس لها إلاَّ المكنسة.

٢٧ ـ الغريزة فى الفن كالغريزة فى الحب، هما الدليل الذى يعتمد عليه، فإذا فارق الإنسان غريزته فى الفن كان كالسمك الذى أخرج من الماء لاتطول حياة فنه بعده.

٢٨ ـ إن الأفكار الغالبة على الجنود وإن كان بينهم أبطال أفكار بعيدة عن البطولة، وكذلك نزعاتهم مثل الإقدام على العدوّ خوفًا من أن يبيدهم إذا نكصوا وولوا الأدبار أو مثل خوفهم من العار والتعيير إذا أدبروا وجبنوا، أو مثل اتقاء العواقب المتنوعة غير المعروفة للهزيمة إذا انهزموا خوفًا، أو مثل الخوف من الحكم بالإعدام على من يفر هربًا أو حتى مثل الخوف من الخوف، فإن الخوف من الخوف قد يؤدى إلى مظاهر الشجاعة والبطولة أو لأن الإنسان سريع الاستجابة للإيحاء، فإذا وضعت فى يده سلاحًا أحسَّ بميل إلى إدخاله فى بطن ما.

٢٩ ـ كثيرًا ماتصدر عن المرء أعماله وأقواله كأنها آتية إليه من خارج نفسه، وإنما هى من استجابته لأمور الحياة واندفاعه فى تيارها، ومن أجل ذلك كثيرًا مايكون المرء أعظم أو أحقر من نفسه، أى من المألوف منها فى حياته.

٣٠ ـ من فوائد العمل أنه يصرف المرء عن التفكير فى آلام حياته وعن الأفكار التى قد تستحوذ على العقل والنفس وتستعبدها فتكون مثل الجنون وهو يشيع الغرور فى الإنسان وقد يوهمه القدرة على مغالبة القدر ويلفت المرء عن مقدار عجزه فى أمور كثيرة.

٣١ ـ صديقات عقيلة برجريه أرغمنها على ترك زوجها، وكانت قد خانته وقبلت وهى تحتقره فى سرها، لأنه هو المظلوم، أن تَغتفر له لومه إياها وأن تصالحه وتبقى معه، ولكن صديقاتها أبينَ إلاَّ أن تترك بيته صيانة لكرامتها بعد أن اتهمها فى شرفها، وكنَّ يُظهرنَ مؤازرتها ومناصرتها، وإنما كان مقصدهنَّ الذى أخفينه رغبتهنَّ فى التخلص منها وهى ثقيلة لديهنَّ رعناء، وقد تَفْضَحُهُنَّ برعونتها

وحماقتها، فكان كيدهن لها يلبس لباس المناصحة والمؤازرة، كما أنهنَّ كنَّ يكرهنَ زوجها لأنه كان رجلاً مفكرًا وكنَّ يسئنَ به الظن من أجل ذلك.

٣٢ ـ إن خلق عالم جديد ربما كان أسهل على المرء من فهم نفسه فهمًا كاملاً على سبيل التقصى من غير أن يفوته شيء من حقائقها.

* * *

خاتمة نظرات أناتول فرانس

ـ ٧ ـ

١ ـ ذهبت إلى أمى وأنا طفلٌ صغير وقلت لها: إن عاشق خادمتنا جوستين قد هجرها، فنظرت إلى وقالت: هل هى التى أخبرتك بذلك؟: قلت: لا، ولكنى لاحظت وعرفت، قالت: إن من التطفل المعيب أن نتحدَّث عما قد نلاحظ من أمور الناس، وأشد منه عيبًا أن نحاول معرفة ماليس من شأننا من أمورهم، أو أن ندَّعى تلك المعرفة.

٢ ـ ورأيت قصة تُمثَّل فى دار التمثيل، وكان أحد الممثلين يمثّل الشيطان، وكان من حوادث القصة أن يقتل بطلُها الشيطانَ، فلما رأيت الشيطان مقتولا اعترانى الوجوم والذهول وظللت فى مكانى بعد انصراف النَّظَّارة المشاهدين حتى جاءَت سوزان تبحث عنى فقالت: مالى أراك واجِماً حائرًا؟ قلت: لقد قُتل الشيطان يا سوزان، وإذا قُتل الشيطان زالت الشرور، وإذا زالت الشرور زالت الفضائل التى فى مكافحة الشرور وبها تُعْرفَ، فماذا يكون مصير الناس عامة والفضلاء خاصة ياسوزان؟ فضحكت سوزان وطوّقتنى بذراعها وقالت: لا تقلق فكرك ولاتزعج نفسك فإنَّ الذى رأيته تمثيل لاحقيقة فلا قُتل الشيطان ولا زالت الشرور ولاانمحت الفضائل التى فى محاربة الشرور وبها تُعرف؛ وهذا يذكرنا الذين يخشون إذا أمن الإنسان الفقر والجوع والعرى والمرض أن تضعف غرائز المقاومة فيه وعزائمه التى بها ارتقى بسبب الكد كى يأمن الجوع والعرى، وبسبب إعمال فكره لتجنب الفقر والمرض، فيضعف عقله أيضًا. ولمثل هؤلاء يقال:

(١) المقتطف: مايو سنه ١٩٤٨.

لاتجزعوا ولا تزعجوا أنفسكم ولا تقلقوا بالكم، فلا زال الفقر ولا المرض انمحى، ولا قُضى على الجهل.

٣ ـ كان اعتمادى فى الهروب من المدرسة وأنا صغير على الفوضى التى تخالط نظام الحياة مهما كان النظام سائدًا، وهذه الفوضى المخالطة للنظام قد تلطف من ظلم الحياة وشدَّة العدل ـ أوقد تزيد ظلمها ـ والإحساس بهذا الاختلال الملازم للنظام، قلما يكون إذا كان المرء راضيًا عن الحياة. وفى الاطمئنان إليه كما فعل أناتول الصغير لذة وسعادة تحجب عنه الخوف من عواقبه؛ إذ أنه يرى أنه قد يُلَطف شدّة الحياة، وهذه الفوضى الملازمة للنظام تكثر فى أعقاب دول الأمم التى قاست عصورًا طويلة من الاختلال أو فى أوقات الانقلاب.

٤ ـ ينبغى للإنسان إذا اعتنق رأيًا أن يقبل نتائجه وعواقبه القَصيَّات وإلاَّ كانت مقدَّمات أفكاره تخالف أعقابها واختلَّ منطقه وحاول التوفيق بين المتناقضين، وقد يخدع نفسه ويخدع الناس وهو لايشعر بهذا الخداع. وهذه الفكرة تذكرنى أنى قرأت مقالين للاستاذ جوليان هوكسلى فى أولهما يأسف؛ إذ أن شركات الاحتكار وكبار الماليين تتخذ من نتاج العلوم فى الطب والهندسة وغيرهما وسيلة للكسب، بدلاً من أن ينتفع به الشعب كله إلاّ فى حالات الأوبئة التى يخشى منها كبار رجال المال على أنفسهم وإلاَّ فى مجهود الجمعيات الخيرية الضئيل، ولكنه لم يفسر كيف يستطاع منع احتكار نتاج العلوم للكسب تفسيرًا مفصلاً مقنعًا إلاَّ بقوله تنشأ لجنة علمية مشرفة، وفى المقال الثانى يقول إن الحروب لا تزول إلا إذا كانت هناك تربية دولية تحاول أن تقضى على غرائز الكره والانتقام والحسد والاقتتال وغيرها، ولكنه لم يفسر تفسيرًا عمليا مقنعًا كيف يقضى على هذه الغرائز ونظام المنافسة يحييها ويزيدها تمكينًا كلما حاول المعلم محوها بالوعظ، هل صحيح ماقال نيتشه الفيلسوف الألمانى إن الانجليز يحجمون عن تتبع أفكارهم إلى نتائجها القصيات أم أن هذه صفة أكثر المفكرين من كل أمة إذا غلب عليهم الفكر وخشوا من غلبته أن تزعزع ثبات حياتهم.

٥ ـ فى بعض الأحايين يتخذ المرء لنفسه عونًا على المصائب بأن يهزل معها أو يداعبها على سبيل الفكاهة والترويح عن النفس، كما كان يصنع المسجونون فى

سجون الثورة الفرنسية الكبرى وهم على وشك أن يُعدمُوا. فكانوا فى سجنهم يحاكون المحكمة الثورية على طريق الفكاهة والسخر، فيحاكمون إنسانًا ويدَّعون إعدامه، ثم ينتقلون به إلى الحياة الأخرى فيحاكمونه فيها. والإنسان إذا لم يستطع إلاَّ مواجهة الأمر المخيف أحس إيحاءً بالإقبال عليه، كالفتاة التى تركتها قريناتها فى حجرة مغلقة مع جثة على سبيل المزح فلجَّ بها الذعر وأحست هذا الإيحاء حتى احتضنت الجثة وهى لاتعى، فلما عادت قريناتها وجدنها جثة لاحراك بها معانقة للجثة، ومن المستطاع أن يفسر عمل المسجونين بأنه كان من محاكاة ميل النبلاء الذين كانوا قبل الثورة يتخذون من كل أمر جلَّ أو حقر مادة للهو، وشاعت هذه العادة حتى أن الملكة (مارى انطوانيت) أحبت أن تعيش فى أكواخ يخيل للرائى أنها مهدمة كأكواخ الفقراء، وإنما كان مظهر تهدمها زينةً وتصنعًا بالفن، فاتخذت من الفقر مادة للهو، وقصتها تذكرنا قصة محبوبة ابن عباد ملك الاندلس أو إشبيلية فإنها رغبت فى مثل هذه الرغبة؛ لأنها اشتاقت حياتها الماضية، فبنى لها ابن عباد كوخًا إذا رأيته حسبت أن أرضه من الطين كأرض أكواخ الفقراء، وإنما كانت أرضه من العنبر الغالى وأمثال هذا اللهو بكل شىء تكثر مؤذنة باضمحلال الدول، على أن لهو المسجونين فى سجون الثورة كان دليلاً على الشجاعة أو لاستشارة الشجاعة فى نفوسهم وقهر الخوف.

٦ ـ القط الأليف من فصيلة الأسد المتوحش، وكذلك الإنسان المهذَّب الخيِّر من فصيلة الشرير الأثيم، والوديع المسالم المتحضر من فصيلة الهمجى الساطى، ولكننا ننسى ذلك حتى تبدر بادرات الغرائز الكامنة، والرجل الواحد قد يكون فى معاشرة إنسان مهذبًا كاملاً خيِّرا وفى اتصاله بإنسان آخر شرّيرًا دنيئًا خبيثًا، وفى الثورات والحروب ينضو المسالم المتحضر الوديع لباس الحضارة والوداعة والمسالمة وقد يبذ المُسَمَّيْنَ بالمتوحشين فى قسوتهم وهمجيتهم، ولكن القسوة والهمجية قد تكونان ظاهرتين حتى فى أثناء السلم فى حياة الرجل المتحضر الذى يألفه أصدقاؤه وكأنهم لايرون شره وخبث طبعه.

٧ ـ بعض الكتَّاب إذا كتبوا للأطفال كتبًا اقتصروا فيها على لغو القول مدَّعين فيها أنهم أسفُّوا وهبطوا إلى مستوى عقول الأطفال، فتكون نتيجة ذلك أنَّ

الأطفال ـ ولاسيما الأذكياء ـ يضحكون منهم ويهزءون بهم، ولا أعنى أنه ينبغى التفكير النظرى، فهذا لاتستسيغه عقول الأطفال، ولكن الأطفال يعجبون بكتب الخيال مما ألفه العبقريون مثل كتاب روبنسون كروزو وأجزاء من الأوديسية، ونستطيع أن نقول أيضًا كتاب ألف ليلة المهذب المنقح وأجزاء من كتاب أسفار جاليفار ودون كيشوت وأسرة روبنسون السويسرية وأمثالها، وكتاب أليس فى أرض العجائب يقبله الكبار كما يقبله الصغار بالرغم من سخف العبقرية فيه؛ لأنه كأنه يعطى العقل إجازة مسلّية، وأما محاولة تلقين الأطفال النظريات العلمية فى كتب يحسب الكاتب أنها تفهمها عقولهم فهى محاولة لايقبلونها ولا يجدون فيها مسرّة، إذ هى للتلاميذ الكبار لا للصغار منهم.

٨ ـ لاشىء أكثر خداعًا للمرء من فطنة الحواس ـ لأنها إما ناقصة وإما ينتفع بها المرء كى يخفى عن نفسه مايريد إخفاءه لمنفعة عاجلة أو ميل نفسى ـ ولو اتضحت الأخطاء أنها أخطاء ما خُدع بها أحد، ولكن فطنة الحواس هى التى تكسوها ثوب الصواب والحقيقة فيتحامق الناس فى نصرتها والاقتتال عليها.

٩ ـ بالرغم من أنى رجل مسالم أحب السكينة والنظام، فإنى أحب أن يكون فى نفس كل إنسان شىء ولو قليل من التمرُّد، مهما كان سنّ ذلك الإنسان، أما الاستسلام التام للحياة فهو ركود وفناء.

١٠ـ لو استطاع الإنسان أن يدرس نفسه دراسة تامَّة وأن يعرفها حق المعرفة لسببت له تنغيصًا وشكا ويأسًا، ومن أجل ذلك أرى أن رسائل مونتانى الذى كان يدرس فيها نفسه لم تكن إلاَّ لهوًا يتسلى به كى ينسى آلام وجع الكلى الذى انتابه ونغّصه ـ ولكن أناتول نسى ما قال مونتانى وهو أنه كان يدرس فى نفسه نفوس الناس ولاسيما من حوله ومن كان يقابلهم. وفى مثل هذه الدراسة نجد تعزية لاتنغيصًا مادام يرى غيره شريكًا له فى صفات نفسه، بل ربما كان فيها إكبارٌ لنفسه.

١١ ـ مهما قسمنا العمل قسمة عادلة بين الناس فإنه سيظل عبئًا ثقيلاً على أكثر الرجال والنساء؛ لأنه عبء الحياة، وهذا لايمنع من إنصاف المثقل بأعباء الحياة والترويح عنه.

١٢ ـ إنه ليؤلم الإنسان إذا كادت حياته تنصرم أن يفكّر فى أن العالم بعد موته يعيش ويعمل ويحس ويفكر كأنّ حياته لم تكن، وعندئذ لايكون له رأى أو عمل أو إحساس فيها ولا يحاول تنظيمها كما يشاء، فيحسّ كأنه غارق فى مَدّ الحوادث وتيار الزمن، وقد عزاه (شوبنهور) بأنه ماهو إلاّ مظهر من مظاهر إرادة الحياة وأنه لاحياة له من غيرها، أى عزاه فى كتبه وهى تعزية لا تُعزّى.

١٣ ـ كما أن الطبيعة تُحوّل الإنسان وتُشكّله وتغيّره وتتحكم فيه، فالإنسان كذلك يغيّر الطبيعة ويشكّلها ويحوّرها. وهذا موضوع كبير، يرجع إليه فى كتب فون راتزل، ومس سميل، وفير جريفز وغيرهم، وقد أراد (أوسكار ويلد) أن يضع هذه الحقيقة فى أسلوب فكاهى فقال: إن الطبيعة تحتذى ألوان الرسّامين المصورين الحديثين فى ألوان الضباب الذى يحدث فى لندن، وإنّنا ما كنا نَرى للضباب مثلَ هذه الألوان قبل احتذاء الطبيعة ألوانَ الرسامين الحديثين، ومما هو أبلغ فى الفكاهة أنّ (ماكس نورداو) الناقد الألمانى الشهير أخذ هذا القول مأخذ الجدّ فقال: إن هذا الرأى يدل على سخافة عقل أوسكار وايلد وانحطاطه وقوله هذا فى كتابه المسمّى (الانحطاط)، ولكن ماكس نورداو معذور؛ إذ أن بعض الكتّاب لاتكاد تستطيع أن تميز فكاهته من جدّه.

١٤ ـ حقا إن للعقل أثراً فى الجسم، كما أن للجسم أثرًا فى العقل (وهذا شىء يعرفه الأطباء حق المعرفة وهو موضوع كبير أيضاً) وقد كان بيير الصغير يدمن النظر فى صور المزارع، فتعاوده ذكرى الأيام التى قضاها فى المزارع وعاد بعدها نضير الوجه بضّ الجسم ظاهر الصحة يقبل على طعامه وينضّر وجهه ويعاوده مظهر الصحة إذا أدمن النظر فى صورها وتأملها تَأمُّلَ المستملى محاسنها، فكأنه عائد من نزهة ريفية.

١٥ـ إن شغفى بقراءة الكتب من صغرى جعلنى أحسّ من عهد ذلك الصغر بفناء العالم؛ إذْ كَمْ من فكرة جاءت ثم زالت، وكم من رأى ولد كى يموت، وكم من نظرية استحدثت كى تنمحى كما تنمحى الفقاقيع، وكم من مذهب ساد ثم باد، وبعد أن كان مقبولاً صار مرفوضًا، فصرت أحس برحلة عقل الإنسان فى فيافى الزمن.

١٦ ـ كان لى كلب كنت أتأمله وهو نائم، فأراه كأنه يحلم، وتارة يئن كما يئن المتوجع المهموم، وتارة يبسم أو كأنه يضحك، وتارة يبكى فكأن له نفسًا يقظى ووعيًا باطنًا كما للإنسان ـ وهَذا يذكرنى (تورجنيف) القصصى الروسى فى قصصه القصيرة التى تشبه الشعر المنثور، إذ كان يدمن النظر فى عينى كلبه فيرى فيها عواطف الإنسانية جميعها فناداه بالأخوة، وهى على الأقل أخُوّة فى الحياة.

١٧ ـ قال لى أنعون فورنيه الرحالة متفكها: احذر أن تكسر البيضة من الجانب المُحَدَّب الأصغر، اكسرها دائمًا من الجانب المنبعج الكبير؛ لأن قومنا يكسرونها من ذلك الجانب، وقد طُفْتُ العالم فوجدت أن الناس المعروفين بالخير هم الذين يصنعون كما يصنع غيرهم حتى فى الأمور الصغيرة التافهة، وإذا خشيت أن تنسى نصيحتى فعليك بالعزلة، اعتزل الناس كى لا يروا سهوك وكسرك البيضة من الجانب الصغير، وقد احتذى أناتول فى هذه الفكاهة سخر (يونوثان سويفت) الكاتب الإنجليزى فى كتاب أسفار جاليفار، فإنه أيضًا تخَيَّل فى دولة الأقزام ليليبوت حزب جانب البيضة المنبعج، وحزب جانب البيضة المُحَدَّب، وأقام بينهما حروبًا ومؤامرات وعداوات، والموعظة فى هذه الفكاهة هى أن الناس كثيرًا ما يتعادون ويتقاتلون لأسباب تافهة.

١٨ ـ تذكر أنك لاتستطيع أن تهب أحدًا السعادة، بأن تقهره على أن يرى السعادة فيما تراه أنت سعادة، فلكل إنسان رأى فى السعادة، وكان يستطيع أناتول أن يقول أيضًا: إن هذا الرأى كثيرًا مايتغير فتارةً يرى الإنسان السعادة فى شىءٍ وتارة فى ضده، وفى بعض الأحايين يرى السعادة فيما فيه شقاؤه وهو لايدرى.

١٩ ـ لابدَّ لكل جيل أن يختبر تجارب الحياة بنفسه؛ لأن الحياة كأنها تنشأ من جديد بنشأة كل جيل؛ إذ أن التجارب لا تُعَلَّم وإنما يكسبها الإنسان بمزاولة الحياة، وقد لاينتفع بها بالرغم من ذلك، ولعلَّ ضرورة اختبار تجارب الحياة فى نشأة كل جيل من أسباب قلة تغيرها أو تغيرها ببطء.

٢٠ ـ بعض الناس إذا أصابه أمرٌ مخزن ونفَّس عن نفسه بمظاهر الحزن احتقر نفسه من الكبر، ولو تذكر أنه ليس أعظم من الأمر الذى أحزنه لما زاد على نفسه

المصائب بهذا الكبر، لأنَّ احتقاره لنفسه بسبب حزنه أو المخالط لحزنه يزيد المصيبة أو الأمر الذى حزن من أجله.

٢١ ـ بعض حقائق الحياة قد تكون غريبة على قربها وألفتنا لها حتى إنها لغرابتها قد نعدها فكاهة لاحقيقة ـ وهذا يذكرنى قصة من قصص (سموست موام) اشتهرت فيها امرأة بفطنة الفكاهة وذكائها وما كان ذلك إلاَّ لأنها كانت ساذجة فكانت لاتستطيع لسذاجتها أن تتجنب ذكر الحقائق المألوفة التى يحاول الناس نسيانها ويتحرَّجون من ذكرها.

٢٢ ـ المال له دولة عالمية حقيقية كبيرة قوية كدولة البابوية والكنيسة الكاثوليكية فى القرون الوسطى، وهى دولة مستقلة ذات سيطرة، ولكن كثيراً ما ننسى أن نعدها بين الدول العظمى.

٢٣ـ كثيراً ما تسرف الحكومات إسرافًا كبيراً فى مظاهر الأبهة والعظمة ومناصب السياسة النائية أو غيرها، وتحاول أن تقتصر فلا تستطيع فتوهم نفسها أن كل ذلك أمرٌ ضرورى لهيبتها وصيانة مصالحها، ثم هى تشكو من قلة المال الذى تحتاج إليه لإصلاح حال الناس فترهقهم بالضرائب.

٢٤ ـ ذوو العقائد المختلفة فى البقعة الواحدة قد يكونون أقرب أخلاقًا من ذوى العقائد المتفقة فى البقاع المتباعدة فكان الامبراطور جوليان الوثنى يصوم ويزهد فى لذَّات الجسم ويعتقد التكفير عن الخطايا، ويرى أن الألم مطهّرٌ للنفوس، كما كان يصنع المسيحيون فى عهده، ولو قارنت بين المسيحية فى أوربا وبينها عند الزنوج لوجدت اختلافًا كبيراً واختلافًا فى أخلاق الفريقين.

٢٥ ـ بعض الناس يكره العلم من شدَّة عشقه له، كما يكره العاشق محبوبته إذا وجد أنها بالرغم من جمالها وحسن أخلاقها لم تستطع أن تجلب له كل أحلامه وأمانيه، وكذلك بعض الناس يكرهون العلم لأنه لايستطيع أن يفسر كل شىء، وما ادَّعى أنه يستطيع ذلك، وبعضهم يكره العلم لأن الغرائز الإنسانية الموروثة قد تستخدمه فى الشرّ، والعيب عيب الإنسان لاعيب العلم.

٢٦ ـ الأفكار كثيراً ماتكون وليدة النزعات النفسية المتناقضة، فتتناقض أفكار الإنسان كثيراً وهو يحسب أنها غير متناقضة، وقد يغضب إذا نبهته إلى ذلك ويلج فى إنكاره.

٢٧ ـ حسن الذوق ضرورى... فكثيراً ما ترى إنسانًا قبيح الذوق يقول: فلانٌ «ليس عنده حسن ذوق»، وهو من ضرورات الحاكم والسياسى؛ لأنه يشمل صفات أخرى كثيرة مثل عدل المرء فى قوله وعمله وخلقه.

٢٨ ـ ما استطاع الإنسان أن يؤسس الحكومات إلاَّ لأنه يأمل أن يكون حاله فى غده أحسن من حاله فى يومه، وهذا الأمل يتجدد بالرغم من خيبته.

٢٩ ـ ليس انتشار ثورة أو نجاحها دليلاً على مقدار الظلم الذى ابتعثها، فإنه إذا كانت جماعة من الناس جائعة متبلدة القول والإحساس من التعاسة هزيلة الأجسام لاسلاح لها إلاَّ الغيظ والمقت كانت أضعف وأعجز من أن تزيل الظلم بثورة ناجحة، وهذا أمرٌ معروف فى التاريخ؛ فإن بعض الحكام كان يتعمد إيجاد مثل هذه الحالة أو المحافظة عليها كى يظل هو وأنصاره مستأثرين بخيرات الحياة والحكم، ومن المعروف أيضًا أن الثورة الفرنسية مااستفحل أمرها لأن الفرنسيين كانوا أتعس حالاً، بل لأن تعاستهم كانت قد قلت نسبيا عن تعاسة غيرهم من شعوب القارة الأوربية وتعاستهم فى أزمان غابرة.

٣٠ ـ ربما كانت القسوة جُمَّاع الرذائل، وربما كان العنف ضعفًا لايغتفر إذ هو على الأقل ضعف الإنسان عن أن يملك نفسه وأن يحكمها.

٣١ ـ يصح أن نختصر وصف أسباب الخصومات فى كلمة واحدة، فنقول: إننا نلوم من لايفكر كَمَنْ يفكر، ومن لايشعر كَمَنْ يشعر.

* * *